

نقد النص الشعري بين الأمدي والقاضي الجرجاني (دراسة مقارنة)

" Comparative Analysis of Al-Amidi and Al-Qadi Al-Jurjani's Poetic Text Criticism "

د. جلال مصطفىاوي¹*¹ جامعة عين تيموشنت (الجزائر)، البريد الإلكتروني: [djalal.mostefaoui@univ-](mailto:djalal.mostefaoui@univ-temouchent.edu.dz)temouchent.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2024-10-01 تاريخ القبول: 2022-11-04 تاريخ النشر: 2024-12-19

ملخص البحث

يتمحور موضوع البحث حول علمين بارزين من أعلام النقد العربي القديم، وهما الأمدي والقاضي الجرجاني، فهما يتشابهان في المنهج النقدي إلى حد كبير، حيث كلاهما يجمع في كتابه، بين النقد والتفسير، ويولي اهتماما كبيرا للجوانب التطبيقية، معتمدا العدل والإنصاف مبدأ لأحكامه النقدية، فهما يمثلان بكتائيهما: (الموازنة)، و(الوساطة) قمة التضج والاكتمال في الفكر النقدي عند العرب، إبان القرن الرابع الهجري. لكن هذا لا يعني أنهما يتفقان في كل شيء، بل هناك مواطن كثيرة يختلف فيها الناقدان.

كلمات مفتاحية: المفاضلة، العدل، النص الشعري، النقد، القديم والحديث، المقارنة.

Abstract:

The study's focus is on two well-known figures from the field of ancient Arabic criticism: Al-Amidi and Al-Qadi Al-Jurjani. These scholars share a critical approach that combines interpretation and criticism in their works, emphasizes the practical side of things, and bases their critical judgments on justice and fairness. Their books, Al-Muwazana and Al-Wasata, represent the height of Arab critical thought in the fourth century AH. This is not imply that they agree on every point, either; the two critics disagree in a number of areas.

Keywords: Criticism, Poetic Text, Justice, Comparison

تمهيد:

لعل من أظهر ما يُسجل للقاضي الجرجاني (ت366هـ) ومعاصره الأمدي (ت370هـ)، في تاريخ النقد العربي القديم، أنهما حاولا أن يقدمتا تنظيرا مقبولا للعديد من الظواهر الفنية في الشعر العربي، وسعيا إلى تجسيد فكرة النقد المنهجي في البحث، بما يتطلبه من بيان الخصائص وتفسير الظواهر، وإقامة التسلسل بين مختلف المذاهب، متجاوزين بذلك الأحكام النقدية التقليدية، التي يعوزها تحليل النصوص الشعرية، والنظر الشامل فيما قال هذا الشاعر أو ذاك. فنحن أمام ناقلين متخصصين يتفقان في بعض المواقف، ويختلفان في أخرى.

1. حياة الأمدي ومؤلفاته:

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدي أصلا، البصري مولدا ونشأة. تلقى العلم عن عدد من كبار الشيوخ، الذين لهم باع طويل في اللغة والأدب والفلسفة وغيرها من ضروب المعرفة، التي زخر بها القرن الرابع الهجري، أمثال: الأخفش والزجاج، وابن السراج، والحامض، وابن دريد، ونفطويه، فكان "حسن الفهم، جيد الدراية والرواية، سريع الإدراك... وله شعر حسن، واتساع تام في الأدب".¹

لقد بنى الأمدي منهجه النقدي، في الموازنة، على خطوات واضحة، تنم عن روح علمية لم تكن معهودة من قبل. ويمكن إجمال هذه الخطوات المنهجية في الآتي:

أ- المذهب الفني أساسا للموازنة: يطرح الأمدي، في المقدمة، صورة لمواقف قدماء الأدباء والنقاد من الشعارين: أبي تمام والبحري، فيشير إلى اعتقادهم السائد، بأن أبا تمام قد أبدى تفوقا لا يضاهى، فيما يتصل بالشعر الجيد، لكنه_فيما عدا ذلك_قد يتدنى في شعره إلى درجة مرذولة، بينما لا توجد، في شعر البحري، فجوة كبيرة بين الجودة والرداءة، بمعنى أن شعره في جملته حسن مقبول. ويصرح الأمدي أن أكثر ما شاهده ورآه من رواة الأشعار المتأخرين "يزعمون أن شعر أبي تمام حبيب بن أوس

الطائي، لا يتعلق بجيده جيد مثله، ورديته مطروح مرذول"². ويخلص من ذلك إلى القول بأنه، نتيجة لهذا، كان شعر أبي تمام "مختلفا لا يتشابه، بينما كان شعر البحتري صحيح السبك، حسن الديباجة. فواضح، من البداية، أن الأمر يتعلق باتخاذ المذهب الفني أساسا للموازنة بين الشاعرين، حيث يميز الآمدي بين مذهبين فنيين متعارضين: أحدهما (عمود الشعر)، وهو مذهب الكتاب والأعراب، والشعراء المطبوعين، وأهل البلاغة، وهؤلاء يناصرون البحتري لما له من "حلاوة اللفظ، وحسن التخلص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأثي وانكشاف المعاني"³. والآخر مذهب البديع، وهو مذهب أهل المعاني، وشعراء الصنعة، ومن يميل إلى التدقيق، وفلسفي الكلام، ويناصر هؤلاء أبا تمام لما له من غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورد، مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج. وواضح أيضا، أن الآمدي لا يخفي ميله إلى المذهب الأول. الأمر الذي حمل بعض الباحثين المعاصرين، أمثال إحسان عباس، على مجازاة بعض النقاد القدماء في توجيه أصابع الاتهام للآمدي بالتعصب للبحتري، متسائلا: هل يستطيع الموازنة المنصفة من كان له هذا الميل ابتداء؟⁴.

ب- حجج الأنصار والخصوم: يقول الآمدي: "وأنا أبتدئ بما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى، عند تخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر، وما ينعه بعض على بعض، لتأمل ذلك وتزداد بصيرة وقوة في حكمك، إن شئت أن تحكم، واعتقادك فيما لعلك تعتقد احتجاج الخصمين به"⁵.

وبناء على قوله هذا، يعرض لحجج أنصار الشاعرين، فيبدأ بأصحاب أبي تمام ملخصا آراءهم في الآتي:

1- لأبي تمام فضل سبق في الزمن، وبالتالي فالبحتري تلميذه، يفسر ذلك كثرة سرقاته منه.

2- تفوق أبي تمام على البحتري في الشعر الجيد، وكثرته، باعترااف البحتري نفسه.

3- لأبي تمام فضل التفرد بمذهب البديع، وليس البحتري كذلك.

ولا شك أن الأساس الذي اعتمده الآمدي، في موضوع السرقات، ينطوي على نوع من التأكيد بأن مفهوم التناص في النظرية النقدية القديمة، كان مُرتكزا مهما في فهم الظاهرة الأدبية.

د-الموازنة الموضوعية بين الشعاعين: يختتم الآمدي كتابه بباب خصصه للموازنة الموضوعية بين الشعاعين، وهو باب يشغل حيزا كبيرا من الكتاب_بالقياس إلى سائر الأبواب_ولا خلاف عند من درسوا كتاب الموازنة، من النقاد المحدثين كطه إبراهيم، ومحمد مندور وغيرهما، في أن الآمدي قد التزم، في مؤلفه، العديد من شروط المنهج العلمي، الذي نحرص عليه اليوم أشد الحرص، وعلى الأخص في مجال الدراسات النقدية، التي تحتاج إلى الحد من طغيان العنصر الشخصي، والتزام الحذر والحيدة، وتعليل الأحكام بالأسانيد والدراسة التحليلية حتى تخرج من حيز الخصوص إلى حيز العموم، وحتى تصير أحكاما مقبولة لدى الناس⁷. ولعل مظاهر هذا الالتزام تتجلى في تحديد الآمدي المجال الذي تتحرك فيه الموازنة، ألا وهو المعاني الجزئية المشتركة بين الشعاعين، وفي رفضه اللجوء إلى إرسال الأحكام المطلقة، وأخيرا، في تراجع عن اتخاذ قصائد يجمعها الوزن والقافية وإعراب القافية، محورا للموازنة "لأن الوزن والقافية، وإعراب القافية، ليس إلا ثوبا خارجيا لما في الشعر من فكر، أو إحساس، أو تصوير"⁸. وبالتالي فإن هذه الموازنة "لا يمكن أن تنعقد، وأن تأتي بفائدة، أو تبصرنا بشيء عن الشعاعين"⁹. ومن ثم، فهو يقصر موازنته بين الشعاعين على بعض المعاني التي يتفقان فيها، فيعتمد إلى تحليل النصوص، تحليلا قائما على الذوق، وتقاليده العرب، والحقائق النفسية، ومسائل الأداء، ليتوصل في _نهاية المطاف_ إلى الحكم بأيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه.

والآمدي يتجاوز الطريقة التي درج عليها سابقوه في النقد، من تعميم في الحكم، وترجمة موجزة للشاعر، ونظر إلى أحكام القدماء على أنها مسلمات لا تقبل الجدل. يتجاوز ذلك كله، ويصرف اهتمامه إلى الدراسة التطبيقية التحليلية التي تستهدف إيجاد مبررات للأحكام النقدية حتى تكون مقنعة فنيا للمتلقي.

2. المنهج الوسطي عند القاضي الجرجاني:

1,2. حياة القاضي الجرجاني، ومؤلفاته:

هو أبو الحسن، علي بن عبد العزيز بن علي بن إسماعيل الجرجاني، ولد في جرجان سنة 290هـ، وبها نشأ، وتوفي في الري سنة 366هـ، وقال بعضهم سنة 392هـ، ودفن في جرجان.¹⁰

وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علما، وفي الكلام عالما، ثم عرج على حضرة صاحب، وألقى بها عصا المسافر، فاشتد اختصاصه به، وحلّ منه محلا بعيدا في رفعة، قريبا في أسرته، وسير فيه قصائد أخلصت على قصد، وفرائد أتت من فرد، وما منها إلا صوب العقل، وذوب الفضل، وتقلد قضاء جرجان من يده، ثم تصرفت به أحوال في حياة صاحب بعد وفاته، بين الولاية والعطلة، وأفضى محله إلى قضاء القضاة، فلم يعزله عنه إلا موته، رحمه الله.

خلف القاضي الجرجاني عدة تصانيف غير "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، منها ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء: تفسير القرآن الكريم، وتهذيب التاريخ. كما جاء في طبقات الزبيدي، أنه صنف كتابا في "الوكالة" فيه أربعة آلاف مسألة. وكان فضلا عن ذلك شاعرا متميزا، ذكر له ابن خلكان ديوان شعر يجمع بين العذوبة والجزالة، وتترق في شمائله السمحة الرضية، ونفسه الكريمة الأبية.

2,2. الوسطية عند القاضي الجرجاني:

وقف القاضي الجرجاني (ت366هـ) موقفا وسطا بين الفريقين، في محاولته إنصاف المتنبي، وردّ الاعتبار له، فلا هو من المغالين في التنويه بشعره، ولا هو من المقللين من شأنه، حيث يصرح في كتابه بذلك فيقول: "وليس يغنينا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا مرادنا أن نبرئه من مقارفة زلة، وإن

غايتنا، فيما قصدنا، أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصر به عن رتبته، وإن نجعله رجلا من فحول الشعراء"¹¹.

والوسطية عند القاضي الجرجاني— كما يدل عليها عنوان الكتاب— جاءت نتيجة الدفاع عن المتنبي، ومن ثم، فهي تمثل الأساس الفني الذي اعتمده في جملة القضايا النقدية، التي عالجها في كتابه. ويستند الجرجاني، في وسطيته إلى مبدأ عام من مبادئ الإسلام، مؤداه أن التقصير صفة ملازمة للجنس البشري، وأن الكمال لله عزوجل، إذ قال الله عزوجل: ﴿وَأَخْرَوْا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (102) (سورة التوبة). وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسَنَاتِ﴾ (سورة هود، من الآية 114).

وقال رسول الله— صلى الله عليه وسلم: "كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" (رواه ابن ماجة). ووفقا لهذا المبدأ، ينتهي القاضي الجرجاني إلى القول بأن الحكم النقدي السديد ينبغي أن ينصبّ على البحث عن مواطن الإجادة لدى الشاعر، وإبرازها للعيان، والتنويه بها، كما ينبغي غض الطرف عن المساوئ القليلة، فيقول في كتاب الوساطة: "وللفضل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة، فمتى وجدت تلك الآثار، وشوهدت هذه الشواهد، فصاحبها فاضل متقدم، فإن عثر من بعد على زلة، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة، أنحل له عذر صادق، أو رخصة سائغة"¹². ويبرر القاضي الجرجاني مشروعية وسطيته، بين المتنبي وخصومه، بما يوجد بينهما من صلات ثقافية، واهتمامات مشتركة بالعلوم والآداب. ولعله استوحى ذلك من قول المتنبي، لسيف الدولة، يذكره برباط النسب، الذي يربط بني كعب بعشيرة سيف الدولة:

لهم حق بشركك في نزار وأدنى الشرك في أصل جوار¹³

فاستعار منه هذا المعنى للتعبير عن نسب من نوع آخر، ألا وهو نسب العلم والأدب، الذي لا يقل أهمية عن النسب الحقيقي، في تهيئة أسباب التقارب بين العلماء والأدباء، وتقوية الوشائج بينهم، "لأن العلوم يقول القاضي الجرجاني لم تزل أيدك الله لأهلها أنسابا تتناصر بها، والآداب لأبنائها أرحاما تتواصل عليها، وأدنى الشرك في نسب جوار"¹⁴.

ومن ثم يثور القاضي الجرجاني، ثورة هادئة على الأساليب النقدية التي كانت متبعة في عصره، ويستنكر ما تقوم عليه من أسس، لا تمت بصلة إلى روح العلم والأدب، فيرفض بشدة جنوح أصحابها على الهوى والتعصب، وإصدار الأحكام الجزافية المسرفة في التعميم، المبنية على التحاسد والحزازات الشخصية، مما يتنافى مع طبيعة الأدب والأدباء، ويعد جناية على الأدب والعلم. ولم يكتف القاضي الجرجاني بالتشديد على تطهير المجال النقدي والأدبي، من نزعات الحسد والتحامل والتعصب، بل كان له تصور واضح عن البديل، بوصفه آلية أساسية لتصحيح المسار النقدي، من منطلق مبادئ محددة، لعل أبرزها (العدل)، إذ يقول في كتابه: "...ولكن الذي أطلبك به، وألزمك إياه، ألا تستعجل بالسيئة قبل الحسنة، ولا تقدم السخط على الرحمة، وإن فعلت، فلا تحمل الإنصاف جملة، وتخرج عن العدل صفرا"¹⁵. والعدل، عند القاضي الجرجاني، يستلزم أمرين مهمين: الانتصار لمن وقع عليه الجور، والاعتذار لنقائضه إن كانت موجودة. ومن ثم، فهو يفضل أن يجنح، في معالجته النقدية، إلى المقايسة، بدلا من الموازنة، لاتصال الأولى بالعدل اتصالا مباشرا. "فالناقد الذي يتحرى الانصاف قبل أن يفرد عيوب الشاعر، أو حسناته، بالتمييز، عليه أن بقيسه على ما كان في تاريخ الشعر والشعراء، فلا يستهجن خطأه في اللفظ، لأنه قلما تجد شاعرا سلم من هذا الخطأ، ولا يستنكر خطأه في المعنى، فكم عدد العلماء من صنوف هذا الخطأ في شعر الأقدمين، ولا يسقطه بسبب التفاوت في شعره، ولينظر إلى أكابر الشعراء... وليحكم هل خلا شعرهم من تفاوت؟"¹⁶

ويوجه القاضي الجرجاني في معرض دفاعه عن المتنبي، ومحاولته إرجاع النقد إلى جادة الصواب، سهام نقده إلى بعض اللغويين كالأصمعي وأبي ريش القيسي، وغيرهما ممن حادوا عن العدل، الذي هو أساس الحكم النقدي عند القاضي الجرجاني، ويكشف أنهم، إنما يصدرون في نقدهم للمتنبي، عن أفكار مسبقة، وأحكام قررها الهوى سلفاً، حتى إن أحدهم قد يعجب بشعر يسمعه، فإذا ما علم أن قائله المتنبي، أو غيره من المحدثين، غيّر رأيه فيه، وتنكر له، واستحال إعجابه، بقدرة قادر، استهجاناً واستخفافاً¹⁷، على غرار ما كان يفعل ابن الأعرابي في موقفه من شعر أبي تمام.

ويمهد القاضي الجرجاني للحديث عن معائب المتنبي ومحاسنه، بالإشارة إلى أنه ليس من العدل في شيء، إنصاف شعراء آخرين كالبحثري، وأبي تمام، وابن الرومي مثلاً، والتنكر لشعر المتنبي، علماً بأنهم جميعاً مشتركون في الجمع بين الرداءة والجودة في أشعارهم. وهو بهذا يؤكد تمسكه بالفكرة التي بنى عليها وسطيته، والتي مؤداها أن ارتكاب الأخطاء وإن تفاوتت قلة وكثرة ظاهرة عامة لدى الشعراء، قديمهم وحديثهم، ومن ثم، فإن أخطاء المتنبي أمر عادي.

ثم يشرع في عرض نماذج من الأخطاء، التي وقع فيها المتنبي، وعابه عليها خصومه، سواء منها ما اتصل بالتراكيب، وما اتصل بالتعقيد اللفظي والمعنوي، وغير ذلك، مما يكرس منحى الاتجاه اللغوي للنقد في عصره... من ذلك قول المتنبي:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وقوله: غثاءة عيشي أن تغث كرامتي وليس بغث أن تغث الماكل¹⁸

فالنفس لا ترتاح إلى هذين البيتين، والسمع ينبو عنهما، لما يفتقران إليه من فصاحة بسبب الثقل الناتج عن تكرير القاف في البيت الأول، والثاء في البيت الثاني. وقوله:

أحاد، أم سداس في أحاد ليللتنا المنوطة بالتنادي

حيث استعمل "سداس" قياسا على "أحاد" مخالفا بذلك ما روي عن العرب. كما صغّر ليلة ثم وصفها بالطول، الأمر الذي جعل المعنى متناقضا. ويحاول المتنبي أن يخترق جدار العرف، والمواضع، ليبرز الشيب في صورة آسرة، فيقول:

ضيف ألم براسي، غير محتشم السيف أحسن فعلا منه باللمم

أبعد بعدت بياضا لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم¹⁹

فيصطدم بردود فعل بعض اللغويين والنحاة، الذين ركنوا إلى المعايير القائمة، ولم يستأنسوا بمثل هذه الصياغات البكر، فعابوا عليه مخالفته للقاعدة العامة، التي لا تجيز صياغة "أفعل" التفضيل من الألوان، غير ملتفتين إلى جواز ذلك عند الكوفيين.

فالقاضي الجرجاني، يقر بكثير من هذه الأخطاء، ويرجع أسبابها إلى التعسف وسوء الترتيب، والتعمق، ولكنه ينفي أن يكون ذلك من قبل المعنى وشرفه. ثم ينتقل إلى ذكر مزايا المتنبي، المتمثلة في العديد من نماذج شعره، فيورد منها ما يراه جميلا رائعا مثل:

يا أعدل الناس، إلا في معاملتي فيك الخصام، وأنت الخصم، والحكم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث يبتسم

ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد، ظهره حرم

رجلاه في الركض رجل، واليدان يد وفعله ما تريد الكف، والقدم²⁰

وهي أبيات يمجد فيها الشاعر تمجيده لسيف الدولة، وينوه بعدله مع الناس كافة، ماعدا شخصا واحدا، هو المتنبي، ويدعم هذه العلاقة الفريدة من نوعها، بالقول: إن ممدوحه صار (خصما وحكما) في

آن واحد. والمتنبّي كعادته لم يدع هذه الفرصة تفلت من بين يديه، فاستطرد إلى تأكيد ذاته، برسم صورة بيانية خاصة به، وأخرى بحصانه، وعلاقته به. "أما في الأولى، فهو أسد قوي، ومن ثم يحذر أعداءه الانخداع بابتسامته، وفي الثانية، يبرز عظمة همته القرينة بجواد لا تنتهك حرمة، وما أسرعه في الاستجابة لقائده"²¹.

3. المقارنة بين الناقلين:

أ- أوجه الاتفاق:

1- منهجية التأليف: إذا كان القاضي الجرجاني، قد اعتمد، في كتابه "الوساطة بين المتنبّي وخصومه" خطة منهجية واضحة، تقوم من البدء بتحديد الأهداف المراد بلوغها، والأسس العلمية الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف، فهو من هذه الناحية، يتفق مع الأمدي في كتابه "الموازنة بين الطائنين"، فكلاهما استثار العديد من القضايا النقدية المشتركة، كما كانت الموازنة هي الآلية الأساس في طرحهما لهذه القضايا... ولعل قضية القديم والحديث هي القضية المحورية التي تناولاها بالبحث والدراسة، وطُبعت سائر القضايا الفنية الأخرى بطابعها. كالسرقات، والطبع والصنعة، والغموض والإحالة، وأخطاء الشعراء وتجاوزاتهم على مستوى المعاني والألفاظ والتراكيب، والوزن، وهي المستويات التي شكلت أسلوب تناولهما للنص الشعري.

2- وحدة الهدف: إذ إن الغاية من كلا الكتابين هي "الدفاع": فالجرجاني قصد بتأليف كتابه، الدفاع عن المتنبّي، وإنصافه بإحاقه بطبقته من المحدثين، أمثال بشار، وأبي نواس، وأبي تمام. وبالمقابل، فإن الغاية الظاهرة من كتاب الأمدي، هي الموازنة الموضوعية بين الشاعرين: أبي تمام والبحري. بيد أن هذه الموازنة تُخفي وراءها دفاعاً مستميتاً عن عمود الشعر، ممثلاً في البحري. ويستطيع المتأمل أن يتبين بيسر، من تضاعيف كلام الأمدي في هذا الصدد، أنه إنما يميل إلى البحري، ويدافع عنه.

3-مراجعة السابقين: لقد أظهر الناقدان كلاهما قدرة فائقة على الحفظ والرواية، وجعلا كتابيهما سجلا حافلا بالأخبار والروايات من أهل العلم والرأي، وكتابهما قريبا الشبه بكتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي في حشد العديد من آراء الرواة وعلماء اللغة والشعراء، الخصوم منهم والأنصار. الأمدي لا يكتفي—كما يقول محمد مندور—بنسخ آراء السابقين، على نحو ما فعل غيره، ممن يروون أحكام الغير، أو ينقلون عن السابقين، مع إغفال ذكر أسمائهم، لم يفعل الأمدي شيئا من هذا، وإنما فعل كما نفعل نحن اليوم، عندما نريد درس مسألة من المسائل، فنجمع الكتب التي وضعت في تلك المسألة، وننظر فيها، فنقر ما نقبله منها، ونعتمد ما نعتبره كسبا نهائيا، ثم نراجع ما نراه خطأ، ونكشف ما ترك في الظل. والقاضي الجرجاني يورد آراء خصوم المتني، وحجج أنصاره، فيناقشها مناقشة موضوعية، تفضي به إلى رد ما كان منها وليد الهوى والعصبية، وإقرار ما كان وليد الطبع والإنصاف، فقد كان هذان الناقدان حريصين، كل الحرص، على أن يسندا كل قول إلى قائله، ومناقشته وفقا لأسس واضحة، منها ما هو موضوعي، ومنها ما هو ذاتي.

4-بصمات الشعر والقضاء في أحكامهما النقدية: فالرجلان من النقاد الشعراء، فقد ذكر ياقوت أن للأمدي ديوان شعر في مائة ورقة، وقال عنه بأنه كان كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات. والقاضي الجرجاني شاعر متميز أيضا، فقد ذكر له ابن خلكان ديوان شعر... ولعل هذه الشاعرية، هي التي حالت دونهما ودون الانحراف إلى متاهات ما يعرف بالنقد العلمي، المرتكز على القواعد والنظريات في المقام الأول، والمستند إلى أساليب المنهج الفلسفي. فهما وإن أفادا من العلم على طريقتيهما—إلا أنهما ظلا محافظين على خبرتهما النقدية في جمال الشعر، وأثبتا قدرة عالية على تحليل الشعور الجمالي، ولحظ النقاط التي يلتقي فيها الشعراء في تناولهما المعنى الواحد.

ب-أوجه الاختلاف:

1-موقفهما من الثابت والمتحول: يبدو أن قضية الثابت والمتحول أو القديم والجديد، هي القضية المركزية، التي يتجلى فيها اختلاف وجهة النظر بين الناقلين، في تقويمهما لعلاقة النص السابق باللاحق، إذ بينما ينتصر الأمدي لتقاليد السلف، وطرائقهم في التعبير والتصوير، ويشدد على التمسك بالأنساق اللغوية القديمة، إلى درجة القول بأن "اللغة لا يقاس عليها"، ويفضل عمود الشعر، ويدعو إلى الالتزام به، على غرار ما فعل ابن سلام الجمحي في طبقاته... لكن القاضي الجرجاني على الرغم من تأثره بهذا المسلك قد ألمح إلى أن الموقف النقدي الجديد، قد لا تكفيه الموازين السابقة، مما يعني أنه منفتح على إنجازات المذهب الجديد، وأنه لا يجد حرجا في الإقرار بضرب من الحداثة في الشعر العربي. ومن ثم، فهو لا يكتفي بوصف الظواهر الأدبية والتعليق العابر عليها، بل يتجاوز ذلك إلى الإحاطة بطبيعة شعر المحدثين، وتحديد آفاق التجديد ممثلا في شعر المتنبي.

2-أسباب الإجابة في الإبداع الشعري: ليس هناك كبير خلاف بين الناقلين فيما يتعلق بنظرتهما إلى المعرفة النقدية، فكلاهما يعد الطبع والدربة وطول مدارس الأعمال الأدبية من أهم أسباب الإجابة في الإبداع الشعري. بيد أن القاضي الجرجاني، لا يكتفي بالوقوف عند أسباب الإجابة بل يتجاوز ذلك إلى ربط هذه الأسباب بالبيئة والمجتمع، الذي يعيش فيه الفنان، ويقدم في هذا الشأن، تنظيرا على قدر كبير من الأهمية في موضوع الجمال الفني، وتأثره بالحياة الاجتماعية والبيئة والطبيعة الشخصية، ويخلص إلى القول بأن الشعر يساير العصر، ويتطور بتطور الزمن، وليس شعر القدماء كشعر المحدثين، وبالتالي فالمولدون غير مطالبين باتباع الجاهليين في أنماط أشعارهم، وأساليبهم وصورهم، وإلا وقعوا حتما في دوامة التكلف والتصنع، مما يفضي إلى ذهاب رونق أشعارهم وحلاوتها.

أما الأمدي، فيحاول بدون تحفظ، تحكيم تقاليد النص القديم في النص الجديد، وفي الوقت نفسه يتضح مسلكه، كناقذ محافظ لا يتقبل بسهولة محاولات أبي تمام في التجديد، والقياس لإثراء اللغة كي تستجيب للمتغيرات وتعبّر عنها، وتفسح للشعراء مجالات أوسع للتجديد والتعبير عن

ذواتهم...وبالتأمل في بعض ملاحظاته على أبي تمام، نجد أنه يعتمد على معرفة أساليب العرب واستخداماتهم للكلمة، والرجوع باستمرار، إلى الشعر القديم والاستناد إليه في حكمه النقدي، فهو يقول ، تعليقا على بيت أبي تمام:

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحا جالت عليها الخلاخل

"هذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب، وهو أقبح ما وصف به النساء، لأن من شأن الخلاخل أن توصف بأنها تعض على الأعضاء والسواعد، وتضيق في السوق، فإذا جعل خلاخلها وشحا تجول عليها، فقد أخطأ الوصف، لأنه لا يجوز أن يكون الخلاخل الذي من شأنه أن يعض بالساق، وشاحا جائلا على جسدها".²²

3- أسلوب التعبير عن التأثيرات الانفعالية: يتسم أسلوب الجرجاني، في رده على اللغويين والنحويين وأصحاب المعاني من خصوم المتنبي بالاعتزان، والتحكم في انفعالاته العاطفية، تجاه ما يستحسن أو يستهجن، دون أن يخرج به الأمر عن حدود اللياقة في مناقشة آراء الخصوم، فهو يتعرض، في انتقاده المعاني، لما يدل منها على نقص الخصم، ويكشف عن استحكام جهله، كتعليقه على من أنكر على المتنبي قوله:

تخط فيها العوالي ليس تنفذها كأن كل سنان فوقها قلم

ناسبا إليه الخطأ في وصف درع عدوه بالحصانة، وأسنة أصحابه بالكلال. يعلق الجرجاني على ذلك في كتابه الوساطة، بقوله أن من كان هذا القدر من المعرفة، فمناظرته في تصحيح المعاني، وإقامة الأغراض، عناء لا يجدي، وتعب لا ينفع.

أما الأمدي، فلا يملك نفسه أحياناً، فيعرب عن تأثراته الانفعالية في نزق وضيق، ومن ثم يقع في التعسف، ويصدر تعليقات جارحة في التعقيب على قول أبي تمام: إن من والديه ملعون... البيت"، فيقول: "من أحق المعاني وأقبحها، وأسخفها، وقد زاد في الحمق بهذا المعنى على معنى البيت الذي قبله، وطم عليه، وعلى جهالاته في معانيه... وما المستحق والله_لعن غيره، إذ رضي لنفسه بمثل هذا السخف.

4. وصفوة القول: إن العلمين الكبيرين يتشابهان في المنهج النقدي إلى حد كبير، حيث كلاهما يجمع في كتابه، بين النقد والتفسير، ويولي اهتماماً كبيراً للجوانب التطبيقية، معتمداً العدل والإنصاف مبدأً لأحكامه النقدية، وبالتالي فهما يمثلان بكتائيهما (الموازنة) و(الوساطة)، قمة النضج والاكتمال، في الفكر النقدي عند العرب، إبان القرن الرابع الهجري. وقد اعتمدا الموازنة بين الشعراء، كآلية أساسية لمعالجة جملة من القضايا النقدية، كتداخل النصوص، وعلاقة السابق باللاحق، للوقوف على مدى أصالة الإبداع الشعري.

• الهوامش:

1 - ياقوت (أبو عبد الله بن عبد الله الرومي الحموي) - معجم الأدياء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: مرجليوث، مطبعة الحلبي، مصر، 1936م، د. ط، معجم الأدياء، 84/8

2 الأمدي، (أبو القاسم الحسن بن بشر) - الموازنة بين أبي تمام والبحر، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1965م، ص3

3 الأمدي، الموازنة، ص18

4 - ينظر: عباس (إحسان) - تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، الأردن، ط2، 1993م، ص150

5 الأمدي، الموازنة، ص3

6 - الأمدي، الموازنة، ص15

7 ينظر: العشماوي (محمد زكي)، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص343

8 - محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص150

9 - المرجع نفسه، ص150

10 - ينظر: عيسى علي العاكوب - التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1997م، ص265

- 11 - الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز) - الوساطة بين المتنبي وخصومه، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط4، 1966م، ص415
- 12 - المصدر نفسه، ص4
- 13 - المتنبي - ديوان المتنبي، ص403
- 14 - القاضي الجرجاني - الوساطة، ص12
- 15 - المصدر نفسه، ص100
- 16 - المصدر نفسه، ص15
- 17 - ينظر: القاضي الجرجاني - الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص79 وما بعدها
- 18 - المصدر نفسه، ص83
- 19 - المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين) - الديوان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص36
- 20 - المصدر نفسه، ص332
- 21 - سعد (أبو الرضا) - معالجة النص في كتب الموازنات التراثية، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص150
- 22 - الآمدي، الموازنة، ص143